المبحث الخامس

نفع الناس بالتعليم لمحو جهالتهم

إن تعليم المجتمع ومحو أميته أمانة دينية ، ومسئولية اجتماعية ينبغي أن يُساهم فيها كل من أكرمه الله بالعلم ، ولقد بيّن النَّبيّ ﷺ جسامة هذه المسئولية في كثير من أحاديثه ، تارة بالترغيب والحث على نفع الآخرين بالتعليم ، وتارة بتوعدهم على كتمانهم العلم .

أولاً : بالترغيب في تعليم الناس :

لقد رغّب النَّبيّ ﷺ في أداء هذه المهمة ليعم بها الخير كل أفراد المجتمع المسلم ليرتقي بالمستوى الثقافي لهم « فإن الفقر الثقافي أسوأ عقبى من الفقر المالي ، والشعب الذي يعاني من الغباء والتخلف لا يصلح للمعالي ولا يستطيع حمل رسالة كبيرة » (١) .

❁ بدأ النَّبيّ ﷺ وهو يُفعِّل الأمة نحو هذا الهدف ببيان أن هذا العمل أحق ما ينبغي أن يتنافس الناس فيه ، فقال : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها** » (٢) .

❁ ثم بيَّن أن المسلم الذي يتعلم ويعلِّم غيره هو خير أفراد المجتمع لما يصدر عنه من نفع ، فقال : « **خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه** » (٣) ، وهذه خيرية مطلقة ويلحق بها كل من علَّم علمًا من العلوم الشرعية وغيرها ما كان علمًا نافعًا

---

(١) الشيخ/ محمد الغزالي : كنوز من السُّنَّة (ص١٣) ط. دار نهضة مصر .
(٢) البخاري في العالم (٧٣) ، ومسلم في الصاة المسافرين (٢٦٨) .
(٣) البخاري برقم (٥٠٢٧) .

محترمًا شرعًا .

❁ ثم بيَّن أجر وثواب من يُعلِّم غيره ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **من علَّم علمًا فله أجر من عمل به ، لا ينقص من أجر العامل شيئًا** » (١) .

❁ وقال : « **من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا** » (٢) . والدعوة إلى الهدى لا تتم إلا بتعليم العلم .

❁ وقال : « **إن مما يلحق المؤمن من عمله بعد موته علمًا علَّمه ونشره ، وولدًا صالحًا تركه ، أو مصحفًا ورّثه ، أو مسجدًا بناه ، أو بيتًا لابن سبيل أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته** » (٣) .

❁ وقال : « **من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلِّمه كان له كأجر حاج ، تامًّا حجته** » (٤) .

❁ وقال : « **أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت : رجل مات مرابطًا في سبيل الله ، ورجل علَّم علمًا فأجره يجري عليه ما عُمِلَ به ...** » (٥) .

❁ وقال : « **مُعَلِّم الخير يستغفر له كل شيء ، حتى الحيتان في البحر** » (٦) ، وفي رواية : « **... ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ...** » (٧) .

❁ ودعاء النَّبيِّ ﷺ بنضارة الوجه لمن يعلِّم غيره فقال : « **نضَّر الله امرءاً سمع**

---

(١) صحيح المتجر الرابح برقم (١٥) وقال : رواه ابن ماجة .
(٢) مسلم في العلم (١٦) والترمذي في العلم (٢٦٤٧) .
(٣) صحيح المتجر الرابح برقم (١٢) وقال : رواه ابن ماجه ، بإسناد حسن وابن خزيمة .
(٤) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٦) وقال : رواها الحاكم وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي .
(٥) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١١٤) ورمز له بأنه صحيح لغيره .
(٦) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٢) ورمز له بأنه صحيح لغيره .
(٧) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٧٠) ورمز له بأنه حسن لغيره .

مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (١) .

ولهذا كله فهم العلماء أن تعليم العلم ونشره أفضل من كثير من النوافل كالتهجد بالليل وغيره .

✿ فعن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ قال : قلت لأبي : أتهجد بالليل أو أكتب العلم ؟، فقال : اكتب العلم » (٢) .

قال الحافظ الدمياطي بعد إيراد هذا الكلام في « المتجر الرابح » :

« قلت : وإنما قال له ذلك لأن كتابة العلم يتعدى نفعها إلى غيره فله أجره وأجر من انتفع بذلك في حياته وبعد موته أبداً ، وأما التهجد فليس له إلا أجره فقط ، والله أعلم » (٣) .

✿ ثم ضرب النَّبيّ ﷺ مثلاً عظيماً لمن يُعَلِّم غيره فقال : « **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فَقِه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به** » (٤) .

قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ معلقًا على هذا الحديث :

« ضرب النَّبيّ ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه ، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه فكما أن الغيث يحيى

---

(١) الترمذي برقم (٢٦٥٧) وقال : حديث صحيح .

(٢) صحيح المتجر الرابح (ص١٦) .

(٣) المرجع السابق نفس الموضع .

(٤) البخاري برقم (٧٩) ومسلم برقم (٢٢٨٢) .

البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت ، ثم شبّه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل فيها الغيث ، فمنهم العامل المعلِّم ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة ، شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها ، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه ، غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم ينفعه فيما جمع له ، لكنه أداه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ، أو تفسده على غيرها ، وإنما جمع في المثل بين الطائفتين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها والله أعلم » (١) .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« شبَّه النَّبيّ ﷺ العلم والهدى الذي جاء به بالغيث ، لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد ، فإنها بالعلم والمطر ، وشبَّه القلوب بالأراضي التي يقع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع ، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته،ثم قسَّم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حِكَمه وفوائده :

أحدها : أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه،وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحِكَم والفوائد منه ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء ـ وهذا بمنزلة الحفظ ـ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وهذا هو الفهم والمعرفة والاستنباط فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء ، فهذا مثلُ الحفَّاظ الفقهاء وأهل الرواية والدراية .

القسم الثاني : أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقهًا في معانيه ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحِكَم والفوائد منه ، فهم

(١) من تعلقياته على صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٤٢) ، ط. مكتبة المعارف ، الرياض .

بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه وإعرابه ولم يُرزق فيه فهمًا خاصًا عن الله ... فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به ، هذا يشرب منه ، وهذا يسقي منه ، وهذا يزرع .

فهذان القسمان هما السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرًا ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

والقسم الثالث : الذين لا نصيب لهم منه لا حفظًا ولا فهمًا ولا رواية ولا دراية ، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعان ، لا تنبت ولا تمسك الماء ، وهؤلاء هم الأشقياء ... وقد اشتمل الحديث على التنبيه على شرف العلم والتعليم ، وعِظَم موقعه وشقاء من ليس من أهله ... وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر ، بل أعظم ، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث ، قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس » [١] .

فالعاقل بعد كل هذا الترغيب من رسول الله ﷺ في نفع الناس بالعلم ينبغي ألا يُضيِّع الفرصة من يديه ، فإن أجره أعظم من عمله كما رأينا ، ولك أن تتخيل أخي الحبيب كم يُجرى من الثواب على من يُعلِّم الناس الخير ، إذا كان كل من عمل بشيء من علمه حتى بعد موته كان له مثل أجورهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيئًا !! .

ثانيًا : التحذير من عدم المشاركة في نفع الناس بالتعليم :

ولقد حذَّر النَّبيّ ﷺ من عدم المشاركة في نفع الناس بالتعليم فذكر أن هذا يجعل العلم على صاحبه كالكنز لا ينفق منه ، فقال : « **مثل الذي يتعلم العلم**

---

(١) ابن القيم : مفتاح دار السعادة (١ / ٢٤٧-٢٤٩) ط . دار ابن عفان ، السعودية ١٩٩٦م .

ثم لا يُحدِّث به كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه » (١) .

ومعلوم بم توعد الله من يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، توعدّهم بعذاب أليم ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)** ﴾ .

[التوبة: ٣٤-٣٥] .

وقال ﷺ : أيضًا : « **من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار** » (٢) .

قال ابن القيم - رحمه الله - وهو يتكلم على مراتب العلم :

« المرتبة الرابعة تبليغه وبثُّه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده ، وهو بثه في الأمة ، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنفقُ منه ، وهو معرَّض لذهابه ، فإن العلم ما لم ينفق منه ويُعلَّم فإنه يوشك أن يذهب فإذا أنفق منه نما وزكا على الإنفاق » (٣) .

❁ بل انظر كيف توعد النَّبيّ ﷺ في خطاب مباشر من لا يُعلِّمون جيرانهم بعاجل العقوبة ، فعن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال : « **خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : ما بال أقوام لا يُفقِّهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ ، وما بال أقوامٌ لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ ، والله ليُعلِّمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم**

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٢٢) ورمز له بأنه حسن صحيح .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٢٠) ورمز له بأنه صحيح .

(٣) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٧٦) .

ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلَّمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ، ثم نزل ﷺ » .

فقال قوم : من ترونه عنى ـ قصد ـ بهؤلاء ؟ .

قال :عنى الأشعريين !،فإنهم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب.

فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قومًا بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا؟ ، فقال رسول الله ﷺ مرةً أخرى : « **ليُعلِّمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا** » ، فقالوا: يا رسول الله ، أنُفطِّنُ غيرنا ؟ ، فأعاد عليهم قوله ، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ ، فأعاد عليهم قوله ، فقالوا: أمهلنا سنة ، فأمهلم سنة ليعلموهم ويفقهوهم ويعظوهم ، ثم قرأ النَّبيّ ﷺ هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة :٧٨] (١) .

فانظر في هذا الحديث كم كان مقدار استيائه ﷺ من رؤية مجموعة من أمته ، ليس عليهم آثار العلم ، وعلى الفور حمَّل المتعلمين المسئولية وحذّرهم إن هم قصروا في تعليم إخوانهم أن يعاجلهم بعقوبة، لأنه يعلم أن العلم هو الضمان لصحة العمل ، فإذا شاع الجهل قلّ العمل وابتدع الناس وأحدثوا وأخطأوا واستحسنوا آراء وقدموها لأنهم لا يعلمون .

❁ ولعلك فهمت من هذا التحذير السابق الآن وبدا لك واضحًا كم نحن مضيِّعين ومفرطين وخصوصًا من يُكلَّفون بالتعليم تكليفًا ويأخذون على ذلك راتبًا ومع ذلك أكثرهم لا ينفعون التلاميذ ولا يعلمونهم .

---

(١) مجمع الزوائد برقم (٧٤٨) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه بكير بن معروف ، وقال البخاري : ارم به ، ووثقه أحمد في رواية وضعفه في أخرى ، وقال ابن عدي : إنه لا بأس به .

قال الشيخ / محمد الغزالي - رحمه الله - :

« ويؤسفنا أن نسمع اليوم عن شجار بين التلامذة والمدرسين حول قيمة الدرس ووقته ، ونحن لا نبخس حق مدرس ولا نريد له أن يتعرض لهوان ، ونرى الأشرف والأتقى لله أن تختفي هذه الضجة وأن يتعاون المسلمون على البر والتقوى » (١) .

وليت كل متعلم أو صاحب علم في الأمة يعي هذا التوجيه الإلهي بالتعليم والتحذير من كتمان العلم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

قال الشيخ / محمد علي الصابوني :

« ولما كان ما أنزله الله من البينات والهدى ، لم ينزل إلا لخير الناس وهداية البشر إلى الطريق المستقيم وكان كتم العلم وعدم تبليغه إلى الناس فيه تعطيل لوظيفة الرسالة التي بعث الله بها رسله وأنبياءه، وفيه خيانة للأمانة التي ائتمن الله عليها العلماء ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ لذلك شدد الله النكير على من كتم شيئًا مما يحتاج الناس إليه ، وخاصة في أمور الدين ، وأوعد بالعذاب الأليم لكل من كتم من آيات الله شيئًا ، أو أخفى من أحكام الشريعة ، لأن الكتمان جرم عظيم يستحق مرتكبه اللعن . . . وفي هذا دلالة واضحة على عناية الإسلام العظيمة بنشر العلم والثقافة ، لتبليغ دعوة الله إلى الناس وانتشال الأمة من براثن الجهل والضلالة » (٢) .

ويقول الشيخ / محمد الغزالي - رحمه الله - أيضًا :

« إن رفع المستوى العلمي للأمة كلها فريضة موزعة على الذكور والإناث ،

---

(١) كنوز من السُّنَّة ، ص (١٦) .

(٢) **انظر** : روائع البيان في تفسير آيات الأحكام (١ / ١١٩) ط. دار الفكر ، بيروت .

ومن أراد الله رفع درجته يسَّر له المزيد من العلم ، وفي الحديث : « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** » والفقيه يجتهد في طاعة الله ويجتهد في تفقيه الناس حوله ابتغاء وجه الله ،وقد يكون تدريس العلم حرفة لبعض الناس، وهذا لا غنى للحياة عنه، ولكن على المعلمين ترك الطمع والمغالاة والمكاثرة من متاع الدنيا » [١] .

ثم إن المسألة مشهورة في كتب الفقه : هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن وعلوم الدين أم لا ؟ .

ومعلوم أن العلماء انقسموا إلى قسمين : قسم يقول بعدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن أو تعليم العلوم الدينية ، لأن الآية أمرت بإظهار العلم ونشره وعدم كتمانه ، ولا يستحق الإنسان أجراً على عمل يلزمه أداؤه ، كما لا يستحق الأجر على الصلاة لأنها قربة وعبادة ، لذلك يحرم أخذ الأجرة على تعليمها .

وقسم آخر لما رأوا تهاون الناس وعدم اكتراثهم لأمر التعليم الديني وانصرافهم إلى الاشتغال بمتاع الحياة الدنيا ، ورأوا أن ذلك يصرف الناس عن أن يعنوا بتعليم كتاب الله وسائر العلوم الدينية ، فينعدم حفظة القرآن وتضيع العلوم لذلك أباحوا أخذ الأجرة ، بل زعم بعضهم وجوبها للحفاظ على علوم الدين [٢] .

وبعيداً عن النظرة الفقهية للترجيح، نرى الفريقين جميعًا معهما الحق ، فالذين قالوا بعدم الجواز رأوا التعليم واجبًا كالصلاة والصيام وغيرها من سائر الواجبات الدينية ولا يجوز أخذ الأجرة على شيء منها ، والذين قالوا بالجواز رأوا مصلحة بقاء التعليم واستمراره ، فحرصوا على أن لا يتعرض المعلم للهوان ، فقالوا بجواز أخذ الأجرة التي تكفيه مئونة العيش ليفرغ نفسه للتعليم ، ولكن برغم هذه النظرة العميقة من فقهائنا فإن في الواقع ـ الآن ـ عدداً كبيراً ممن

---

(١) كنوز من السُّنَّة ، ص (١٦) .

(٢) **انظر** : تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/١١٧) .

أُدرِجت أسماؤهم في سجلات المعلمين خطأً وهم لا يستحقون ، انصرفوا عن التعليم وبقيت أسماؤهم في السجلات وبقوا يعلِّمون ولكن ماذا يُعلِّمون ؟ ، إلا من رحم الله . . . .

✿ **أيها المعلمون والمدرسون وكل متعلم:** اتقوا الله في مصير الأمة ، الأمة تخلفت بسبب تقصيرنا، وليعلم كل منا أن الله سبحانه وتعالى يرضى منا أن نشكره على نعمائه ،ومن أعظم شكرك لربك على أن علمك هو أن تنشر العلم وتعلِّم غيرك .

وإذا أبت عليك نفسك وشيطانك يقولان لك : أنت لم تتعلم بالسهل ، بل أنفقت وتعبت وسهرت ، فلا تبذل العلم إلا بمقداره ، فقل لهما أنا لا أنسى ما ولدت عليه من الجهل ، كما قال ربي تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ . [النساء : ١١٣] .

إن المؤسسات التعليمية في كافة أرجاء العالم الإسلامي قد تراجعت وهبط مستواها ، وذلك لأسباب من أهمها : غياب المعلم المسئول الذي يحرص على أن يكون من أحب الناس إلى الله ، بأن ينفع الناس ويعلمهم ، فنرجوا أن تكون هذه الكلمات سبيلاً لإيقاظ الضمائر وزلزلة غيوم الغفلة عن القلوب . . . آمين .